التفكير التداولي والحجاجي عند الرازي من خلال "مفاتيح الغيب"

THE PRAGMATIC AND ARGUMENTATIVE THINKINGCCORDING TO ERAZI THROUGH"MAFATIH EL-GHAYB"

د- مريم غر ايسة[1,*]، د- سليم سعداني[2]

[1]جامعة الوادي، (الجزائر)، Meriemghdz94@gmail.com

2جامعة لخضر الوادي، (الجزائر)، sadani66@yahoo.fr

مخبر بحوث في الأدب الجزائري ونقده

تاريخ الإيداع: 2021/05/03 **تاريخ المراجعة**:2021/07/26 **تاريخ النشر**: 2022/06/15

ملخص:

التداولية اتجاه لساني فلسفي معاصر يقوم بدراسة اللغة اعتمادًا على السياقات الواردة فيها وكذا وضعية المتخاطبين ومدى تأثيرهم على بعضهم البعض بواسطتها، وهو ما تبحث فيه مختلف النظريات الحجاجية. والمتأمل لما أورثه علماؤنا المتقدمون في مختلف الميادين من نحو أو نقد، أو بلاغة، أو تفسير يجد تمجيدًا للمقام، الأمر الذي يعد العمود الفقري للنظر التداولي، وكنموذج للتفاسير التي تجلى فيها الفكر التداولي الحجاجي مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي؛ إذْ وجدنا في معالجته للنص القرآني العديد من القضايا التي يمكن عدُّها ممارسة للمنهج التداولي والحجاجي، وهذا ما نود طرحه من خلال هذه الدراسة، من غير أن نركز في المفاهيم التنظيرية الحديثة للتداولية والحجاج.

الكلماتالمفتاحية: التداولية، الحجاج، التفسير، مفاتيح الغيب، المقام.

Abstract

Pragmatics is a modern linguistic philosophical direction that studies language by reliance on the provided contexts, As well as the situation of the speakers and how much they influence each other, this is what the different argumentative theories looking for. The researcher in what the advanced scientists have left in various fields of :grammar, criticism, rhetoric or Tafsir finds glorification of the contexts .This is the backbone of the pragmatic consideration, The book of Mafatihelghaybe by El-rrazy is one of the Tafsir books in which the pragmatic argumentative thought was manifested; where we found in his treatment of the Quranic text several issues that can be considered a practice in the pragmatic argumentative approach, And that what we would like to propose through this study, without focusing on the modern theoretical concepts of pragmatics and Argument.

***Keywords**: Pragmatics, Argument, Tafsir, Mafatihelghaybe, Context*

* المؤلف المراسل.

تقديم:

إن الملاحظ لما في الإرث المعرفي الذي خلده علماء العرب المتقدمون - على اختلاف توجهاتهم- يجد اهتماما باللغة وما يحيط بها من النشاط التواصلي؛ والتأثير المتبادل بين الأشخاص من خلالها، وجل هذه القضايا مطروحة الآن في التوجه اللساني الفلسفي الجديد، المسمى بـ: "التداولية"،وكذا "الحجاج".

ومن هؤلاء العلماء يبرز فخر الدين الرازي(544-606ه) في تفسيره الكبير " مفاتيح الغيب" حيث وجدنا في معالجته للنص القرآني العديد من القضايا التداولية والحجاجية، بين ما كان ممارسة أثناء العملية التفسيرية وما كان تنظيرًا، كل ذلك يستدعي الكشف عنه حتى نسهم في تشكيل نظرية تداولية عربية أصيلة ومعاصرة...

أولًا: التداولية

اللسانيات التداولية من الدراسات الحديثة التي وهبت خالص اهتمامها للمقام المحتضن للعمليات التخاطبية؛ نظرًا لكونه الوسيلة الفعّالة القادرة على إظهار ما أمكن من معانٍ ومقاصد يخفيها المتكلمون. وقد ظهرت ملامح الوعي التداولي عند العلامة الفخر الرازي بقيمة المقام من خلال اهتمامه بأسباب نزول الآيات- الذي يعد مقامًا أحاط بنزولها- وجعله وسيلة معينة على عملية التفسير، ومن ذلك قوله: " قبل الشروع في التفسير لا بد من ذكر سبب النزول"[1]. ومعلوم أنّ سبب النزول يتضمن الزمان والمكان والشخوص والملابسات المحيطة بنزول الآية، وما تقديم ذكره على شرح الآية إلا دليل على إيمان صاحب التفسير الكبير بالدور الذي يلعبهحضور المقام في فهم معاني الكلام.

ومماسبق يُبرز الحضور الفعلي للمضامين التداولية عند الرازي أثناءقيامه بالعملية التفسيرية للنص القرآني، قوله في تفسير قوله تعالى: ﴿فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾[المائدة:85]؛ "ظاهر الآية يدل على أنهم إنما استحقوا ذلك الثواب بمجرد القول لأنه تعالى قال ﴿فأثابهم الله بما قالوا ﴾ وذلك غير ممكن لأن مجرد القول لا يفيد الثواب. وأجابوا عنه من وجهين: الأول: أنه قد سبق من وصفهم ما يدل على إخلاصهم فيما قالوا، وهو المعرفة وذلك هو قوله ﴿مما عرفوا من الحق﴾ فلما حصلت المعرفة والإخلاص وكمال الانقياد ثم انضاف إليه القول لا جرم كمل الإيمان..."[2]حيث نلمسفي شرحه للآية حضورنظرية أفعال الكلام" Theory of speech acts"[*]؛ إذْ رأى أنّ مجرد تلفظهم بالقول غير كافٍلينتج عنه فعل التأثيري، بل لابد من إخلاصهم فيما قالوا،وهو ما نجده في الدرس التداولي الغربي الحديث، فاشتراطه الصدق في القول يقابل إجمال الشروط القياسية "Regulative" التي وضعها مؤسس النظرية أوستين، كمرحلة أولية، ويوافق تحديدًا شرط الإخلاص"sincerity condition"الذي وضعهسيرل حين طور شروط الملاءمة التي ذكرها أوستين، وقصد به أن " يكون المتكلم مخلصًا في أداء الفعل[...]يريد حقًّا أن يؤدي السامع الفعل"[3] فإذا تحققت تلك الشروط "في الفعل الإنجازي الكلامي كان موفَّقًا وناجحًا، وإذا لم يتم الالتزام بها فلن يتحقق الهدف الذي من أجله تم النطق بهذا الفعل الكلامي"[4]. فصدق المتكلم وإخلاصه عامل له القدرة على التحكم في مدى جدوى كلامه، وتأثيره. كما أكد الإمام الرازي على ذلك بقوله: " أجمعت الأمم على أن الدعاء اللساني الخالي من الطلب النفساني قليل العمل عديم الأثر"[5]. حيث عبّر عن فشل الفعل الكلامي المفتقر لشرط الإخلاص بقلة العمل وانعدام الأثر. بمعنى غياب الفعل التأثيري، أو ما يُصطلح عليه الفعل الناتج عن القول.

بالإضافة إلى شرط الإخلاص في الفعل الكلامي تطرق الرازي إلى قضايا الخبر والإنشاء وخروج كل منهما عن ظاهره في العديد من المواطن في تفسيره للآيات وتراوح فكره التداولي فيما بين الاستنتاج الإجرائي أثناء عملية التفسير وبين طرح الأفكار التنظيرية لها والتي ترد في الغالب مصاحبة للمعالجة التطبيقية؛ فمن الممارسة التداولية قوله في شرحالاستعاذة: " قوله (أعوذ بالله) لفظه الخبر ومعناه الدعاء والتقدير اللهم أعذني"[6] فكأنه يقول بأن هذا القول فعل كلامي غير مباشر؛ إذْ من النّاحية السطحية أو الشكليّة يصنّف ضمن الإخباريات "Assertives" حسب تصنيف سيرل- التييتمثل غرضها الإنجازي في نقل المتكلم حدثا ما، ويحتمل هذا القسم من الأفعال الصدق والكذب، ويضم هذا الصنف معظم أفعال الإيضاح"Exercitives"، وبعض أفعال الأحكام"Verdictives" عند أوستين- لكن حين يعمق النظر يظهر أنه يصنف ضمن التوجيهيات"Directives"- الذي يتمثل غرضها الإنجازي في توجيه المتلقي إلى القيام بسلوك ما،يندرج ضمنها الاستفهام، الأمر، النصح، التحدي-[7] وقوله في تفسير الآية ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق﴾ [الأعراف : 32]. "إن هذه الآية ظاهرها استفهام إلا أن المراد منه تقرير الإنكار والمبالغة في تقرير ذلك الإنكار"[8]؛ فقد صنف هذا القول من التوجيهيات إلى الإخباريات. كما تناول موضوع الدعاء ورأى بأنه " ليس المقصودُ من الدعاء طلبَ الفعل بل المقصود منه إظهار الخضوع والذلة والعبودية"[9] وقال في موضع آخر:" إنه ليس المقصود من الدعاء الإعلام بل إظهار العبودية والذلة والانكسار والرجوع إلى الله بالكلية"[10]، كما أكّد أيضًا:"...بأن الدعاء هو اعتراف بالعبودية والذلة والمسكنة، فكأنه قيل إن تارك الدعاء إنما تركه لأجل أن يستكبر عن إظهار العبودية"[11]، كل ذلك يشير إلى أن المفسر يقرّر وبكل تأكيد على أن التصنيف الأدق للدّعاء هو أن يدرج ضمن التعبيريات "Expressives" لا التوجيهيات"Directives".

ومن مظاهر إمساك الرازي بناصية جوهر التداولية اعتماده في تحديده دلالات الآيات على العديد من القرائن التي من شأنها أن تعينه على تحديد مقاصد الكلام، من ذلك قوله في قوله تعالى:﴿وإذ جعلنا البيت مثابة وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيمَ مُصلًّى ﴾ [البقرة: 124] : "لا شك أن قوله جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا خبرٌ، فتارة نتركه على ظاهره ونقول إنه خبر وتارة نصرفه عن ظاهره ونقول إنه أمر [...] ولا يمكن أن يكون المراد منه الإخبار عن عدم وقوع القتل في الحرم لأنا نشاهد أن القتل الحرام قد يقع فيه، وأيضا فالقتل المباح قد يوجد فيه، قال تعالى: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم﴾ أخبر عن وقوع القتل فيه. القول الثاني أن نحمله على الأمر على سبيل التأويل، والمعنى أن الله تعالى أمر الناس بأن يجعلوا ذلك الموضع آمنا من الغارة والقتل..."[12]، فقد صرف ظاهر الآية من الإخبار إلى التوجيه معتمدًا على السياقين المقامي واللغوي كدليل على صواب تأويله واختيار تصنيفه. فيفضي بنا هذا التأويل إلى أن فهم المقاصد يعتمد في الأساس على مقام الورود لا على الاكتفاء بما هو لغوي فقط، وبناء على ذلك فإن اللغة متقلّبة بتقلّب المقامات، مما يجعل من الكلمة الواحدة تتكيّف مع أكثر من مقام، وهذا ما أشار إليه صاحب الإرهاص الفعلي للتداولية ولنظرية الفعل الكلامي الفيلسوف النمساوي فتجنشتاين"Wittgenstein" من خلال وصفه اللغة بأنها "لعبة"[13].

وقد استعان الرازي في مواطن أخرى بالقرائن اللغوية في الوصول إلى المعنى غير المباشر ومن ذلك قوله:" لما رأوها ومعها عيسى عليه السلام قالوا لها لقد جئت شيئًا فريًّا فيحتمل أن يكون المراد شيئًا عجيبا خارجًا عن العادة من غير تعيير ويحتمل أن يكون مرادهم شيئًا عظيما منكرًا فيكون ذلك منهم على وجه الذم وهذا أظهر

لقولهم بعده: يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوْء وما كانت أمك بغيًّا لأن هذا القول ظاهره التوبيخ"[14]. حيث انتقل من دلالة الإخبار إلى التوبيخ اعتمادًا على السياق اللغوي المصاحب للقولة:" لقد جئت شيئا فريًّا" مع أن الكل ورد بصيغة الخبر إلا أنها بمجموعها تشير إلى التوبيخ والذم وهو بهذا يصنف قولهم ضمن ما يسمى بالتعبيريات عند سيرل.

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ أو كلما عاهدوا عهدًا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يومنون﴾ [البقرة: 100]،"والمقصود من هذا الاستفهام، الإنكار وإعظام ما يقدمون عليه لأن مثل ذلك إذا قيل بهذا اللفظ كان أبلغ في التنكير والتبكيت ودل بقوله ﴿أو كلما عاهدوا﴾ على عهد بعد عهد نقضوه ونبذوه بل يدل على أن ذلك كالعادة فيهم فكأنه تعالى أراد تسلية الرسول - ﷺ- عند كفرهم بما أنزل عليه من الآيات بأن ذلك ليس ببدع منهم بل هو سجيتهم وعادتهم"[15] فقد حوّل الاستفهام من التوجيهيات إلى التقريريات إلى التعبيريات، وكأن هذا الفعلَ الكلامي غيرُ مباشرٍ بدرجة مضاعفة.

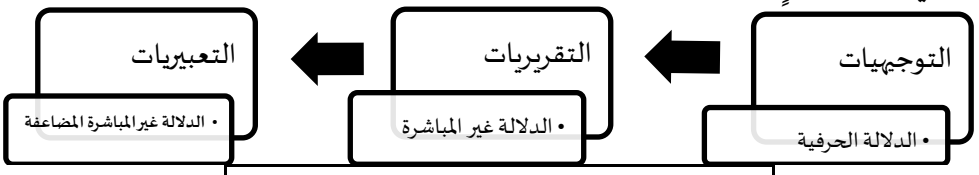

الشكل01: تدرج دلالة الفعل الكلامي عند الرازي

ومن مظاهر وقوف الرازي على مفهوم الفعل الكلامي غير المباشر "indirect" أيضا، سعيه في البحث عن سر اختيار الصيغ غير المباشرة لأساليب الكلام ومن ذلك قوله: " **قوله: يتربصن لاشك أنه خبر، والمراد منه الأمر فما الفائدة في التعبير عن الأمر بلفظ الخبر والجواب من وجهين: الأول: أنه تعالى لو ذكره بلفظ الأمر لكان ذلك يوهم أنه لا يحصل المقصود إلا إذا شرعت فيها بالقصد والاختيار، وعلى هذا التقدير فلو مات الزوج ولم تعلم المرأة ذلك حتى انقضت وجب أن لا يكون ذلك كافيا في المقصود، لأنها لما كانت مأمورة بذلك لم تخرج عن العهدة إلا إذا قصدت أداء التكليف، أما لمّا ذكر الله تعالى هذا التكليف بلفظ الخبر زال ذلك التوهم وعرف أنه مهما انقضت هذه العدة حصل المقصود، سواء علمت أو لم تعلم وسواء شرعت في العدة بالرضا أو بالغضب. الثاني: قال صاحب «الكشاف»: التعبير عن الأمر بصيغة الخبر تأكيد الأمر إشعارًا بأنه مما يجب أن يتعلق بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص فهو يخبر عنه موجودًا ونظيره قولهم في الدعاء: رحمك الله أخرج في صورة الخبر ثقة بالإجابة، كأنها وجدت الرحمة فهو يخبر عنها"**[16] يقرر الرازي في هذا المثال أن الآية تحمل فعلا كلاميًّا غير مباشر إذْ إن ظاهرها الخبر وباطنها الأمر، كما أشار إلى اتفاقِ الصيغتين "الأمر والخبر" في المحتوى القضوي، حيث تشيران إلى قضية تربص النساء المتوفى أزواجهن بأنفسهن، وكذا في الغرض الإنجازي ويتمثل هنا في الأمر، واختلافهما في القوة الإنجازية حيث رأى أن ورود التوجيه بصيغة التقرير يمنحه قوة إنجازيه أشد من وروده بصيغته المباشرة، وأكّد ذلك في موضع آخر بقوله:" أن الإخبار في معنى الأمر والنهي آكد وأبلغ من صريح الأمر والنهي، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء فهو يخبر عنه"[17]، يميز الرازي بين درجات القوة الإنجازية للصيغتين ومنح الأمر الوارد بصيغة الخبر غير الصريح شدة أكبر من الأمر

الوارد بصيغته المباشرة، وهو ما لم يفصل فيه التداوليون المحدثون بصورة جلية وإنما تركز بحثهم في الأمر المباشر والأمر الذي يرد بصيغة الخبر المقترن بالفعل المساعد "يجب" أو "ينبغي"[18].

وذكر أيضًا: " **أنّ الأمر سنّ تارة لحكمة تنشأ من نفس المأمور به، وتارة لحكمة تنشأ من نفس الأمر فإن السيد قد يقول لعبده افعل الفعل الفلاني غدًا وإن كان يعلم في الحال أنه سينهاه عنه غدًا، ويكون مقصوده من ذلك الأمر أن يظهر العبد الانقياد لسيده في ذلك ويوطن نفسه على طاعته، فكذلك إذا علم الله أنه سيموت غدًا فإنه يحسن عند أهل السنة أن يقول صل غدا إن عشت، ولا يكون المقصود من هذا الأمر تحصيل المأمور به. لأنه هاهنا محال بل المقصود حكمة تنشأ من نفس الأمر فقط وهو حصول الانقياد والطاعة وترك التمرد إذا ثبت هذا فنقول:" لم لا يجوز أن يقال الخبر أيضا كذلك؟ فتارة يكون منشأ الحكمة من الأخبار هو الشيء المخبر عنه وذلك في الوعد، وتارة يكون منشأ الحكمة هو نفس الخبر لا المخبر عنه كما في الوعيد، فإن الأخبار على سبيل الوعيد مما يفيد الزجر عن المعاصي والإقدام على الطاعات، فإذا حصل هذا المقصود جاز أن لا يوجد المخبر عنه كما في الوعيد، وعند هذا قالوا إن وعد الله بالثواب حق لازم، وأما توعده بالعقاب فغير لازم. وإنما قصد به صلاح المكلفين مع رحمته الشاملة لهم [...] فيحمل الإخبار عن الوقوع على الإخبار عن استحقاق الوقوع**"[19] والمتأمل لهذه الرؤية يتضح لديه أن الرازي قد أجمل العديد من قضايا الفعل الكلامي، كإيجاد النسبة الخارجية، وتعدد المعنى غير المباشر، فالخبر على سبيل الوعيد -مثلا- عنده يكون قد انتقل من الإخباريات إلى الالتزاميات، ومن الالتزاميات إلى التوجيهيات. فإذا كان الانتقال من المعنى المباشر إلى المعنى غير المباشر يعبر عنه بمعنى المعنى، فإنّ ما تناوله الرازي يندرج ضمن ما يمكن أن يسمى بـ: معنى معنى المعنى.

الشكل02: انتقالات معاني الفعل الإنجازيعند الرازي

بالإضافة إلى كل ذلك لم يفت الرازي أن يخوض في تبعية النسبة الخارجية للنسبة الكلامية أو العكس، فمن ذلك تأكيده على أن : " الإخبار عن الوقوع تبع للوقوع، والوقوع تبع للإيقاع والتبع لا يغير الأصل"[20]

وقال في موضع آخر: "فعل الشيء متقدم على الإخبار عن فعله وعن العلم بفعله"[21] و أضاف أيضًا: " أن العلم بالوقوع تبع للوقوع والوقوع تبع للقدرة فالتابع لا ينافي المتبوع"[22]. الأمر الذي يقابل أحد مقاييس سيرل الاثني عشرة التي يمكن من خلالها التمييز بين الأفعال الإنجازية والمسمى الاختلافات في اتجاه المطابقة" direction of fit" بين الكلمات والعالم: وهي اختلافات تكون من الوجهة الإنجازية لبعض الأقوال، وتقوم بترتيب الكلمات حتى تلائم الواقع، أو بالضبط لملاءمة المضمون القضويّ للواقع، فبعض الأفعال الغرضية تجعل المحتوى القضوي للكلمات متماثلة مع العالم، وبعضها الآخر تجعل العالم متماثلا مع المحتوى القضوي

للكلمات[23]،فالإخباريات يكون اتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم "words to world"، والتوجيهيات والالتزاميات يكون اتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات "world to words"[24]

اتجاه المطابقة في الإخباريات	اتجاه المطابقة في التوجيهيات والالتزاميات
الكلمات الكلمات تتبع العالم ⇩ العالم	العالم العالم يتبع الكلمات ⇩ الكلمات

الشكل03: اتجاه المطابقة بين الكلام والعالم عند الرازي

هذا وقد كان للرازي اهتمام بقوانين الخطاب وما يتعلق بآداب التحاور مثل مبدأ التعاون عند غرايس"Herbert Paul Grice"، وقد كشفت الدكتورة نصيرة محمد غماري عن حضور قاعدتي العلاقة (المناسبة/المطابقة)"Reievance"، والكم"Quantity" عند الرازي في كتابها النظرية التداولية عند الأصوليين دراسة في تفسير الرازي (544-606هـ)[25] لنضيف قاعدة الكيف"Quality" عنده حيث ينبه المخاطبِين على التيقن من صدق الكلام الذي يتناقلونه، ومثال ذلك ما قاله في تفسيره لآية: ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينًا وهو عند الله عظيم﴾ [النور:15]"... أنهم كانوا يتكلمون بما لا علم لهم به ويدل ذلك على أنه لا يجوز الإخبار إلا مع العلم أما الذي لا يعلم صدقه فالإخبار عنه كالإخبار عما علم كذبه في الحرمة ونظيره قوله ﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾"[26]؛ فالرازي من خلال ما قدّمه من شرح للآية يرى بأن الكلام غير المُتأكد من صحته أو صدقه هو مثيل الكلام المتأكد من كذبه، لذا شدّد على تحريمه، وإذما أردنا صوغ ما قاله هنا في قالب قواعدي لتهيأ لنا أنه يقول:

-لا تقل ما تعلم أنه ليس صادقا أو ما تعلم كذبه.

- لا تقل ما ليست لك عليه بينة أو دليل يثبت صدق قولك[27].

والملاحظ لهذه التفسيرات وغيرها من الأفكار التي عرضها الرازي والتداوليون على حدٍّ السواء يجد لها تشابكًا واتفاقًا في مركزية السعي للوصول إلى المقاصد والتي يُكشف عنها من خلال عمليات التأويل والاستدلال التي تسهم في تفاعل ومن ثم نجاح العملية التواصلية.

ومن هنا يمكننا الاطمئنان بأن معالجة الرازي للنص القرآني تعج بالأفكار التداولية، ومحاولة إعادة قراءته بالمعطيات الحديثة تماثل العقد الذي يعاد صوغه من جديد فكلما سحبت منه حبة جرت أخواتها تباعًا، وما الرازي إلا فرد يمكنه أن يمثل مجتمعًا لذا يمكننا القول بأن "دراسات المفسرين وتفاسيرهم تداولية قطعًا؛ فقد استأثروا بفهم طرق تأليف اللفظ ووجه استعمال الكلام، وبفهم لمقاصد الخطاب وسياقه وأغراضه"[28] ذلك أن الفهم الأدق لمعاني كتاب الله ينبني على استحضار جميع مكونات الخطاب اللغوية والسياقية في عملية التفسير[29].

ثانيًا: الحجاج

بالإضافة إلى القضايا التداولية، تجلت من جهة أخرى وبوضوح معالم التفكير الحجاجي عند الرازي في الكثير من محطات تفسيره، لعل مما يبرز ذلك اعتماده على القياس الآرسطي للوصول إلى النتائج ومن ذلك قوله: " كل مجهول لا يحصل العلم به ألا بواسطة مقدمتين معلومتين والمقدمتان هما كالشاهديْن، فكما أنه لا بد في الشرع من شاهدين فكذا لا بد في العقل من شاهدين وهما المقدمتان اللتان تُنتجان المطلوب"[30]؛ فالقياس "الحجاج القياسي" من الآليات المنطقية، والشكل النموذجي للقياس يتكون من ثلاث ركائز: مقدمة كبرى (مسلم بها)، ومقدمة صغرى، ونتيجة، ووظيفته في الخطاب الحجاجي تتمثل في جعل المحجوج يشارك في العمل الحجاجي، وبالانتقالمما هو بديهي مسلم به إلى الهدف المسطّر "النتيجة"، عملية ربط بين المقدمات والنتيجة؛ تعمل على شد انتباه المتلقي، وجعله يركز تفكيره على الاستنباط والاستنتاج، يقول ابن سينا في هذا: "إنّ القياس قول مؤلف من أقوال؛ إذا وضعت لزم عنها لذاتها لا بالعرض قول آخر غيرها اضطرارا"، بمعنى أنّ أساسه-أي القياس- عملية الربط، ذلك أنّ ارتباط أحد القولين بالآخر، يكون نتيجة ربطهما بقول ثالث، ومثاله:

-المقدمة الكبرى: الإنسان حيوان.

-المقدمة الصغرى: الحيوان ليس جمادا.

-النتيجة: الإنسان ليس جمادا.[31]

بالإضافة إلى ذلك ظهر وعي الرازي بالقسم الحجاجي في معرض كلامه عن ظنية النتائج وقطعيتها بناء على مقدماتها، ذلك أن القسم الحجاجي يعبر عن عدد من الحجج "المقدمات" الموصلة لنتيجة ما، فقد رأى " أن العلم إذا كان استدلاليًّا كان وقوع الشك في الدليل يوجب وقوع الشك في المدلول، ووقوع الشك في مقدمة واحدة من مقدمات الدليل يكفي في حصول الشك في صحة الدليل"[32]، حيث "إذا صار بعض مقدمات الدليل مشكوكًا فيه. صارت النتيجة ظنية لأن المظنون لا يفيد اليقين"[33] ورأى بأن " التمسك بالدلائل اللفظية لا يفيد اليقين، والدلائل العقلية تفيد اليقين والمظنون لا يعارض المقطوع، وإنما قلنا: إن الدلائل اللفظية مبنية على أصولٍ كلها ظنية والمبني على الظني ظنيٌّ"[34] فكأنه قارن بين الحجاج والبرهان، أو بتعبير أدق يلمح لخصيصة جوهرية في الحجاج اللغوي وهي كونه احتماليًّا، وهو مما يؤكد عليه أبو بكر العزاوي رائد الحجاج اللغوي في الوسط المغربي، حيث يقول: "إن الحجاج اللغوي عمومًا نسبي ،ومرن ،وتدريجي ،وسياقي، بخلاف البرهان المنطقي والرياضي، الذي هو مطلق وحتمي"[35]

كما تناول مسألة إمكانية وقوع الشك في الحجج اليقينية مؤكدًا على " أن المطلوب إذا كان غامضًا دقيق الحجة كثير الشبهة فإذا اجتهد الإنسان فيه وحصل له اليقين فربما غفل عن مقدمة من مقدمات ذلك الدليل الدقيق فيعود الشك والشبهة، فإثبات اليقين في بعض الأحوال لا ينافي طريان الارتياب بعد ذلك"[36]، وهو ما يوافقه عليه رائد الحجاج البلاغي بيرلمان حين قال: " وإذا وجدت بداهات لا يشك أحد فيها أو يفكر في الاعتراض عليها، فإن هناك بداهات نسبية ومتغيرة، بل قد تكون خادعة أيضًا، لقد مُثِّل للبداهة على مدى قرون، بكون الكل أكبر من كل أجزائه ثم تبين أن هذه القضية غير صادقة بالنسبة للمجموعات اللانهائية"[37]، ذلك أن العقل البشري عاجز على إدراك الحقيقة المطلقة.

بالإضافة إلى تلك الأفكار الحجاجية النظرية، تبرز عند الرازي عدة آليات حجاجية سنكتفي بذكر نماذج منها:

1) **حجاجية اسم الفاعل:**

تنبه الرازي إلى كون اسم الفاعل صيغة صرفية يتم استغلالها كحجة لغوية، وظهر ذلك من خلال قوله: " وأما قوله: خالق كل شيء فهو اسم فاعل وهو يتناول الأوقات كلها، [...] ليجعله **مقدمة** في بيان أنه لا معبود إلا هو والحاصل أن هذه **المقدمة** مقدمة توجب أحكامًا كثيرة و**نتائج** مختلفة، فهو تعالى يذكرها مرة بعد مرة، ليفرع عليها في كل موضع ما يليق بها من النتيجة"[38]، فقد عدّ المفسراستخدام صيغة اسم الفاعل "حجة" موصلة للعديد من النتائج، ذلك أن اسم الفاعل من النماذج التي يدرجها المرسل في خطابه بوصفه حجة ليسوغ لنفسه إصدار الحكم الذي يريد، ليبني عليه النتيجة التي يرومها[39]، ويتم ذلك انطلاقًا من المعنى الصرفي للصيغة، ومن أمثلة الحجاج باسم الفاعل قول الرازي: "وقوله (الكاذبين) باسم الفاعل فائدة [...]وهي أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الأمر فإنه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك إذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبي العهد بالإسلام في أوائل إيجاب التكاليف وعن قوم مستديمين للكفر مستمرين عليه فقال في حق المؤمنين الذين صدقوا بصيغة الفعل أي وجد منهم الصدق وقال في حق الكافر الكاذبين بالصيغة المنبئة عن الثبات"[40]، فقد أظهر الشاهد تنبه المفسر لقدرة الصيغة الصرفية على التحكم في المضامين الحجاجية للكلام،

2) **حجاجية التمثيل:**

التمثيل نوع من الحجاج نعني به التشبيه والاستعارة وهذا النوع من الحجة هو الأنسب للتواصل اللغوي وللمتلقي، ويوضح لنا "طه عبد الرحمن" الفرق بين الحجاج العقلي وبين الحجاج التمثيلي بقوله: "لا يخفى على ذي بصيرة أنّ نموذج الحجاج هو قياس التمثيل، إذ المعروف أنّه هو الاستدلال التي يختص بالخطاب الطبيعي في مقابل البرهان الذي هو الاستدلال الذي يختص بالقول الصناعي[41]، وفي حجاجية التمثيل يقول الرازي : "المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقًا للعقل وذلك في نهاية الإيضاح"[42]. ومن أمثلة حجاجية التمثيل المنبثقة من النص القرآني عنده قوله في تفسير قوله تعالى:﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾[الأعراف: 176]:"واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن أتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض كان مشبهًا بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث[...]وأيضا فهو يفيد الزجر عن الكفر والدعوة إلى الإيمان."[43]، فقد وضّح الرازي كيف تحملت التقنية البلاغية"التمثيل"حجاجًا دامغًا، فيه لمس لعاطفة وعقل المتلقي، وهو ما وافقته فيه الأستاذة الدكتورة سامية الدريدي حين جعلت "الاستدلال بواسطة التمثيل يعني تشكيل بنية واقعية تسمح بإيجاد أو إثبات حقيقة عن طريق تشابه في العلاقات، فهو احتجاج لأمر معين عن طريق علاقة الشبه التي تربطه بأمر آخر[44]،

3) **حجاجية تحصيل الحاصل:**

بعض العبارات قد تبدو لأول وهلة مجرد حشو أو تحصيل حاصل، لا تضيف شيئًا للخطاب، ولكنها في حقيقة الأمر تكتنز بإيحاءات تأثيرية أو - إن صح التعبير- بدلالات حجاجية[45]، وقد كان للرازي إسهام في كشف المبررات التداولية والحجاجية لما قد كان ظاهره حشوا، ومن الأمثلة الواردة في التفسير الكبير الدّالة على إمساك الرازي بناصيتها قوله في تفسير قول الله عزّ وجلّ:﴿ إِذْ تلقونه بأسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم﴾[النور: 15]، "فإن قيل ما معنى قوله بأفواهكم والقول بالفم؟ قلنا معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب فيترجم عنه باللسان وهذا الإفك ليس إلا قولًا جرى على ألسنتهم من غير أن يحصل في القلب علم به كقوله ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾"[46]، فقد قدمت الآلية شبه المنطقية "تحصيل الحاصل"معان حجاجيةغير ظاهرة.

ومن شواهد وقوفه على المعنى الخفيّ لما يمكن عدّه تحصيل حاصل أيضا قوله في تفسير الآية السادسة والأربعين من سورة الحج: ﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾؛ حين أجاب عن السؤال الذي يستخبر جدوى زيادة الكلام المعروف والمتمثل هنا في إضافة بيان مكان القلب والذي هو الصدر، فقد قال: "أي فائدة في ذكر الصدور مع أن كل أحد يعلم أن القلب لا يكون إلا في الصدر؟ الجواب: أن المتعارف أن العمى مكانه الحدقة. فلما أريد إثباته للقلب على خلاف المتعارف احتيج إلى زيادة بيان كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك بين فكيك تقرير لما ادعيته للسان وتثبيت لأن محل المضاء هو هو لا غير. وكأنك قلت ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك سهوا، ولكنني تعمدته على يقين"[47]. يؤكد المثالاناستقرار مفهوم الحجاج بتحصيل الحاصل عند الرازي،

هذه النماذج وغيرها الكثير مما يصادفنا في التفسير الكبير دلائل دامغة على وعي الرازي العميق بالفكر الحجاجي، والذي كان جامعًا لمختلف التوجهات الحديثة، فقد استثمر ملكته الموسوعية في سبيل تقديم شرح أوفى للنص القرآني.

الخاتمة:

إنّ ما تم استعراضه في هذه الورقة البحثية من قضايا تداولية وحجاجيةمُتضمّنة في تفسير الرازي هو غيض من فيض؛ ذلك أنّ محاولة التتبع المستقري للمبادئ التداولية والحجاجية المتوفرة في التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب تحتاج إلى قراءة متأنية وبحث مستفيض حتى يحظى بنصيبهغير منقوص،ومع ذلك فإن كل اطلاع سريع قادر على الكشف عنأبرز ما عنده،ومن أهم ما تم التوصلإليه في هذه الدراسة:

- مفاتيح الغيبيحوي الكثير من المفاهيم والتصورات التي تماثل ما جاء به الدرس المعاصر من آراء وأفكار تداولية وحجاجيةوقد تُجاوزها.
- أغلب ما ورد من مفاهيم تداولية وحجاجية في التفسير كان في صورة ممارسة إجرائية، مما غطى على مما جاء تنظيرًا.
- الأسماء والمصطلحات التي يستخدمها الرازي وإن كان مخالفة لما في الدرس الحديث، لكن المفاهيم والمقاصد متفقة، بل وفي كثير من الأحيان متطابقة.

- نظرية الفعل الكلامي وكل ما يحيط بها متأصلة في ممارسة الرازي التفسيرية.
- مبدأ التعاون متربع على قضايا الحوار والتخاطب الواردة في مفاتيح الغيب.
- القياس وسيلة حجاجيةلها حضور واضح في التفسير الكبير.
- القسم الحجاجي، من المفاهيم التي أفاض فيها المفسر.
- حضور أنواع الآليات الحجاجية المختلفة يعكس اتساع مشارب المفسر.
- حضور كل هذا وغيره مما يؤكد إمكانية الربط بين ما توافر من دراسات حديثة ذات البيئة الغربية، بما أنتجه علماء العرب السباقون؛ وذلك يهيئ الأسباب لقيام نظرية تداولية عربية. مواكبة للحضارة الغربية من جهة، ومانِحة للغة العربية خصوصياتها التي لم يغفل عنها أعلام الدرس التراثي من جهة أخرى.

هوامش وإحالات المقال

[1] فخر الدين الرازي. مفاتيح الغيب.د تحق.ط1. بيروت: دار الفكر،1981. ج5. ص50.

[2] المصدر نفسه. ج12. ص73-74.

* هي أحد أبرز المفاهيم التداولية ظهرت على يد أوستين وطورت على يد تلميذه سيرل، مفادها يعبر عنه ب"أن تلفظنا بالقول هو إنجازنا لفعل"، ينظر على سبيل الذكر: محمد مدور "نظرية الأفعال الكلامية بين التراث العربي والمناهج الحديثة دراسة تداولية".[مجلة الواحات للبحوث والدراسات]. جامعة غرداية: الجزائر. ع16. 2012. ص ص47-57

[3] محمود أحمد نحلة. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. دط. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2002. ص48- ص49.

[4] علي محمود حجي الصراف. في البراجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي. ط1. القاهرة: مكتبة الآداب،2010. ص52.

[5] الرازي. مفاتيح الغيب. ج3. ص225.

[6] المصدر نفسه. ج1. ص95.

[7] بوقمرة عمر." البحث التداولي من الإرهاصات التأويلية إلى الأفعال الكلامية".[مجلة الممارسات اللغوية] جامعة مولود معمري: الجزائر. ع30. 2014. ص167.

[8] المصدر السابق. ج14. ص67.

[9] المصدر نفسه. ج9. ص152-ص153.

[10] المصدر نفسه. ج5. ص107.

[11] المصدر نفسه .ج27. ص81.

[12] المصدر نفسه. ج4.ص51-ص52

[13] ينظر: محمود فهمي زيدان. في فلسفة اللغة. دط. بيروت: دار النهضة العربية، 1985. ص54.

[14] المصدر نفسه. ج21.ص208.

[15] المصدر نفسه. ج3. ص217.

[16] المصدر نفسه . ج6. ص92-ص93.

[17] المصدر نفسه. ج3. ص176.

[18] ينظر: محمد العبد."تعديل القوة الإنجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب". [فصول مجلة النقد الأدبي]. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ع65. خريف 2004-شتاء 2005. ص142.

[19] المصدر نفسه. ج2. ص63-ص64.

[20] المصدر نفسه. ج10. ص03.

[21] المصدر نفسه. ج24. ص60.

[22] المصدر نفسه. ج4. ص39.

[23] ينظر: دلال وشن. القصدية في الموروث اللساني العربي دراسة في الأسس النظرية والإجرائية للبلاغة العربية. أطروحة دكتوراه. بسكرة: جامعة محمد خيضر. كلية الآداب واللغات، 2016. ص105.

[24] ينظر: محمود عكاشة. النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) دراسة في المفاهيم والنشأة والمبادئ. ط1. القاهرة: مكتبة الآداب، 2013. ص106.

[25] ينظر: نصيرة محمد غماري. النظرية التداولية عند الأصوليين دراسة في تفسير الرازي(544-606هـ).ط1. إربد: عالم الكتب الحديث، 2014.ص134-ص138.

[26] الرازي. مفاتيح الغيب. ج23. ص180.

[27] طه عبد الرحمن. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. ط1.الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1998. ص238-ص239.

[28] بومنقاشالرحموني. الضوابط التداولية للنص الديني التفسير أنموذجًا. الرباط: مؤسسة مؤمنون بلا حدود. ص6.

[29] نعمان بوقرة ."ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين". [مجلة إسلامية المعرفة] ع54، خريف 2008. ص116

[30] الرازي. مفاتيح الغيب. ج2. ص225.

[31] مسعودة ساكر. النص الحجاجي في الطور المتوسط من التلقي إلى الإنتاج. مذكرة دكتوراه. عنابة: جامعة باجي مختار. كلية الآداب واللغات، 2018. ص95-ص96.

[32] الرازي. مفاتيح الغيب. ج16. ص79.

[33] المصدر نفسه. ج2.ص103.

[34] المصدر نفسه. ج2. ص63.

[35] أبو بكر العزاوي. اللغة والحجاج. ط1. الدار البيضاء: العمدة في الطبع، 2006. ص20.

[36] المصدر السابق. ج30.ص 206-ص207.

[37] محمد طروس. النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية. ط1.الدار البيضاء: النجاح الجديدة، 2005. ص49

[38] المصدر السابق.ج13. ص129-ص130.

[39] عبد الهادي بن ظافر الشهري. استراتيجيات الخطاب. ط1. بيروت: دار الكتب الجديد المتحدة، 2004. ص488.

[40]

[41] عمارية حاكم. "حجاج التمثيل في النحو العربي من خلال كتاب سيبويه". [مجلة مقاليد]. ع8. جوان 2015. ص65.

[42] الرازي. مفاتيح الغيب. ج2. ص80.

[43] المصدر نفسه. ج15. ص60، ص62.

[44] سامية الدريدي. الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه. ط2. إربد: عالم الكتب الحديث، 2011. ص252.

[45] ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري. استراتيجيات الخطاب.ص489

[46] الرازي. مفاتيح الغيب. ج23. ص180.

[47] ينظر: نصيرة محمد غماري. النظرية التداولية عند الأصوليين. ص 136-ص137.

قائمة المصادر والمراجع:

1) أبو بكر العزاوي. اللغة والحجاج. ط1. الدار البيضاء: العمدة في الطبع، 2006.
2) بوقمرة عمر." البحث التداولي من الإرهاصات التأويلية إلى الأفعال الكلامية".[مجلة الممارسات اللغوية] جامعة مولود معمري: الجزائر. ع30. 2014.
3) بومنقاشالرحموني. الضوابط التداولية للنص الديني التفسير أنموذجًا. الرباط: مؤسسة مؤمنون بلا حدود.
4) دلال وشن. القصدية في الموروث اللساني العربي دراسة في الأسس النظرية والإجرائية للبلاغة العربية. أطروحة دكتوراه. بسكرة: جامعة محمد خيضر. كلية الآداب واللغات، 2016.
5) سامية الدريدي. الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه. ط2. إربد: عالم الكتب الحديث، 2011.
6) طه عبد الرحمن. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. ط1.الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1998.
7) عبد الهادي بن ظافر الشهري. استراتيجيات الخطاب. ط1. بيروت: دار الكتب الجديد المتحدة، 2004.
8) علي محمود حجي الصراف. في البراجماتية الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة دراسة دلالية ومعجم سياقي. ط1. القاهرة: مكتبة الآداب،2010.
9) عمارية حاكم. "حجاج التمثيل في النحو العربي من خلال كتاب سيبويه". [مجلة مقاليد]. ع8. جوان 2015.

10) فخر الدين الرازي. مفاتيح الغيب. د تحق.ط1. بيروت: دار الفكر،1981.
11) محمد طروس. النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية. ط1.الدار البيضاء: النجاح الجديدة، 2005.
12) محمد العبد."تعديل القوة الإنجازية دراسة في التحليل التداولي للخطاب". [فصول مجلة النقد الأدبي]. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ع65. خريف 2004-شتاء 2005.
13) محمد مدور "نظرية الأفعال الكلامية بين التراث العربي والمناهج الحديثة دراسة تداولية".[مجلة الواحات للبحوث والدراسات]. جامعة غرداية: الجزائر. ع16. 2012.
14) محمود أحمد نحلة. آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر. دط. الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2002.
15) محمود عكاشة. النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) دراسة في المفاهيم والنشأة والمبادئ. ط1. القاهرة: مكتبة الآداب، 2013.
16) محمود فهمي زيدان. في فلسفة اللغة. دط. بيروت: دار النهضة العربية، 1985.
17) مسعودة ساكر. النص الحجاجي في الطور المتوسط من التلقي إلى الإنتاج. مذكرة دكتوراه. عنابة: جامعة باجي مختار. كليةالآداب واللغات، 2018.
18) نصيرة محمد غماري. النظرية التداولية عند الأصوليين دراسة في تفسير الرازي(544-606ه).ط1. إربد: عالم الكتب الحديث، 2014.
19) نعمان بوقرة ."ملامح التفكير التداولي البياني عند الأصوليين". [مجلة إسلامية المعرفة] ع54، خريف 2008.